ملخص السيرة : عفراء قمير طالبي

عنوان المداخلة:

أنا آخر، أو عندما تصبحُ الهويّة كرنفالا

قمير طالبي

ملخص البحث

تتقاطع ههنا فكرتان فيما بين فيلسوف وشاعر يعدّ كلّ منهما رائيا بامتياز، فحين قال فلاديمير يانكليفتش بأنّه « لا يتعلّق الأمر بأن نتعرّف على الآخر وحسب، بل بأن نكونه وأن نصيرهُ Il ne s'agit pas de connaitre seulement l'autre, mais d'***être*** cet autre en le devenant » ، كان آرثر رامبو قد مهّد الطريق لهذا الاتحاد من خلال عبارته الشهيرة « أنا آخر Je est un autre » . ولأنّنا كائنات ناظرة ومنظورة، فالحديث عن الهوية ثباتا وتحوّلا في فقه المرايا ذو شجون فلسفية وأخرى شعريّة، وما يراد في هذا المقام ليس فقط العودة إلى أدبيّات التعريف الكلاسيكيّ منذ أرسطو لما قد تعنيه مقولتا الهويّة والغيريّة في أفقهما الضيّق/ الواسع، بقدر ما نسعى للبحث عن مَعينٍ ورافدٍ مشتركٍ يخدم فكرة الانفتاح على العالم بجسد يحمل روحين. ولأنّ الآخر هو وجه هذا العالم الواحد المتعدّد، فالحاجة ملحّة لفهم هذا التلازم المحتوم بين الأنا والآخر لا بوصفه علاقة ثنائية القطب، ولكن بما هو هويّة ذات بعد واحد يؤسّسها الشعريّ قبل الميتافيزيقيّ. ولأنّ قدر قطعة الخشب أن تصبح كمانا، فالآخرُ هو المشهد السعيد للهويّة المتحولّة.

مقدمة

أن ننفتح على العالم كما يقول إدغار موران، هو نضع أنفسنا في خضّم مغامرة مجهولة، نكون فيها روّادا وضالّين في الوقت نفسه، لأنّ انفتاحا على الحياة هو أيضا انفتاحنا على حيواتنا المتعدّدة الوجوه. ولا غرابة أن يكون الشّعر ممكنا من ممكنات الانفتاح الحرّ واللامشروط على الحياة، فنّا وجمالا، ولعلّ عبارة رامبو " أنا آخر" هي بمثابة التأسيس الجمالي لأشكال الحضور في العالم عبر انصهار الهويّات وإن مجازا، لأنّ الكائن الذي يتكلّم ههنا –كما يقول هيدغر في كتابه الكينونة والزمان – إنّما يكون على نمط الكشف عن العالم وعن الدّزاين Dasein، عبر اللغة. ولأنّ الشعر هو معلمّ الإنسانية الأوّل فهو يمنحنا القدرة ليس على معرفة الآخر فحسب، بل على أن نكونه. قد يكون الأمر نوعا من الاستبدال كما يسّميه ايمانويل ليفيناس، ولكن ليس استبدال ارتهان، بمعنى ارتهان الذات نفسها للآخر والذوبان فيه، لكنه محاولة تسعى للوقوف بطريقة جديدة على أرضية هذا الآخر كإمكان ثان للتعبير عن الكينونة. "إنّ الآخر موجود في صميم الذات، وهو ضرورة داخلية"[1]، وحضوره يخلق حيزا مشيميّا يعمل على تغذية الأنا وعلى تثبيتها، إنّه يمنحها الحياة وإن قال سارتر تعنّتا،خلاف ذلك، واصفا إيّاه بالجحيم.

لعلّ السياقات العامة التي خلقت " أنا آخر" عند رامبو، لها مسوّغاتها التاريخية التي قعّدت لتوّجه شعريّ مغاير، ولسنا ننوي الحديث هنا عن تفاصيل النقلة ولا عن الصدام الحاصل بين الكلاسيكيين والمجّددين من البارناسيين Les parnassiens . ولكن عن غيرية الأنا من حي هي مراوغة لا تحتكم إلى منطق هوويّ صارم، إلاّ أنّها تجد كلّ معقوليتها اللامعقولة في جملة شعرية صاخبة! ذلك أنّ اللغة الشعرية قوى مشحونة، كما تقول جوليا كريستيفا، ولا تكتسب قيمتها إلا بهذا الشحن الانفعالي، حين تتحوّل من لغة صامتة إلى كيان نابض... أنا آخر، حال قطعة النّحاس التي تجد نفسها بوقا، يقول الشّاعر، بعد أن فصلت الفلسفات منذ أرسطو في شكل العلاقة تطابقا واختلافا بين الأنا والآخر، مؤسّسا بذلك لما تبقى... فهل صحيح أنّ ما تبقّى الذي أسّسه ويؤسسه الشعراء، منذ ما قبل هُلدرلين وإلى ما بعد رامبو ،كفيلٌ بأن يمنح العالم رحابة تصلح للعيش المشترك؟

بناء على ما سبق، نحاول في ورقتنا البحثية هاته مقاربة الموضوع انطلاقا من العناصر التالية:

- مقدمة
- أنا آخر، أيّ عصا في دواليب الهوية؟
- في مديح المرآة، أو كيف تصف الذات نفسها؟
- أنا آخر، أو قطعة الخشب التي تجد نفسها كمانا
- الشعرُ حدثا كونيّا ورؤية للعالم.
- خاتمة

[1] إدغار موران، **النهج، إنسانية البشرية، الهوية البشرية**، ترجمة: هناء صبحي، ط1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، أبو ظبي، 2009، ص.93.

1 أنا آخر، أيّ عصا في دواليب الهوية ؟ !

يشدّد الكاتب المسرحي شريف خزندار على كونه آخر، وبأنّه سيبقى آخر، وما الحديث عن الآخر إنما هو حديث عن نفسي كما يقول، وأن تعرف نفسك بنفسك هو مشروع ميؤوس منه.[2] يبرز ههنا استلهامان مباشران لعبارتين أثيرتين كانتا وماتزالان روح الإبداع الفلسفي والشعري على حد سواء، فهل يمكن أن تتحدّد الأنا معرفة وإدراكا عبر أناها خالصا أم عليها أن تتغاير فتصبح أخرى أكثر انفتاحا؟ فالأنا التي هي آخر تمثل شكلا من أشكال الحضور في العالم من حيث هو اتحاد وشرك وتشارك، ومن هنا لا يمكن الحديث عن المغايرة إلا بوصفها امتدادا لهذه الأنا بل شرط تحققها الهووّي.

يمكن اعتبار سؤال الهوية سؤالا بدئيّا واستهلاليا يحضر حضور الوجوب في أفق كلّ الأسئلة الممكنة حول الذات أو الأنا والآخر، سؤال الماهية أولاّ ومن ثمّ جميع ما يمكن بناؤه للوصول إلى الإجابة عن السؤال الكبير ما الإنسان؟ بالرّد إلى ما تتقوّم عليه كينونته في الأصل الواحد والأصل المشترك. في الواقع تحيل مسألة الهوية في الفلسفة الوجودية وفي علم النفس وعلم النفس التحليليّ إلى الأنا أو الذات، وهي مقولة – أي الهوية– تعبّر عن تساوي أو تماثل موضوع أو ظاهرة مع ذاته ويلّخصها الجرجانيّ في تعريفاته "بأنّها تلك التي تشتمل على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب" [3]، فقولنا عن هوية الشيء والإشارة إليه بهو إنمّا يعني إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك. فالهوية إذن كما يقول الشاعر، عين ذات الواحدِ ... [4] تماما كما أشار من قبل الفرابي أرسطو، فمبدأ الهوية لديه كما هو معلوم يقوم على تطابق الشي مع نفسه أي أ هو أ، "وبنقله إلى العربية يصبح الشيء ما هو هو، لكن إذا كانت الهوية تحيل إلى الآخر عندما تتحدّد بالهو، أي ما هو هو فإنّ النتيجة المترتبة على Ego هو أنّ الأنا هو الآخر، بمعنى أن تصبح ما هو هو في حالة الأنا ما أنا هو، وهكذا فإنّ الأنا وفق هذا الفخّ اللغويّ الذي تأسّست عليه ميتافيزيقا الهوية منذ أرسطو تحيل إلى الآخر مباشرة، بل وإلى آخر Autre بمعنى الغريب[5]".

إنّ عبارة رامبو* الشهيرة "أنا آخر" تشي بعلاقة حميمة يفرضها الوجود الضمنيّ للآخر، وجود لا يمكن فصله عن ضمير المتكلم فيغدو إذاك واحدا، الضميران غائبا ومتكلّما، أي الأنا الناطقة Je والآخر المعبر بالغائب فردا أو جماعة أو كيانا أو حالة أو شيئا. فالأنا بما هو ذات بصيغة المتكلّم تصبح هوية متطابقة مع الآخر عبر فعل الكينونة est / etre الذي يختفي في اللغة العربية ولكنه يبقى مدلّلا على أنّ أنا آخر هي ذاتها أنا هي آخر في منطوقها الفرنسي Je est un Autre . فالآخر عند رامبو يمكن أن يتّخذ مفهوم الشيء ذي النّمط الخاص كما يقول ريكور، هو شيء ولكن خاصيته تتحدّد عندما نتكلّم عن أشخاص يشكّلون في الحقيقة كيانات هذا العالم، وهذه

---

[2] شريف خزندار، أنا الآخر، مجلة الآخر، العدد 4، 1 أفريل 2012، بيروت، ص.329.

[3] الجرجاني، **التعريفات**، دط، مكتبة لبنان، بيروت، 1975، ص.286.

[4] جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص.ص 530.529.

[5] انظر:خلدون النبواني، محاولة في تفكيك الهوية والأنا https://www.alawan.org/2015- تاريخ الاطلاع: 22.03.2019/ 14:14

* آرثر رامبو، شاعر فرنسيّ (1854 –1891) رائد الحداثة الشعرية بامتياز، أنهى مشواره الإبداعي في سنّ مبّكرة تاركا عددا من القصائد التي شكّلت منعطفا حاسما في تاريخ الكتابة الشعرية الحديث، من أهمّ أعماله: إشراقات، فصل في الجحيم... أنظر : آرثر رامبو، **الأعمال الكاملة**، ترجمة وتقديم: رفعت سلام، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2012، ص.28.

الكيانات سيستعملها لاكان Lacan بمعنى المرجعية والإطار الذي تتشكّل فيه الذات، وبما أنّ " الأنا تنطبق على كلّ من يتكلّم ويسمي نفسه Je فكلُّ مضطلعٍ بهذه الكلمة يأخذ على عاتقه اللغة بأكملها " [6].

ولكن من هذا الآخر الذي يقصده رامبو؟ إذا كان المتكلّم كمّا يوّضح مالارميه، "هو الكلمة لا في وحدتها، وفي تذبذبها الهشّ وحسب بل في كيانها اللغزيّ العابر" [7] . هل الآخر هنا مجرّد انشطار للأنا الأولى التي تعلن عدم اكتفائها بذاتها وتبحث عن تعيين آخر للهوية؟ بتعبير هومي بابا[8] ، أم أنّه مجرّد رغبة تقع داخل شراك اللغة/ اللغة الشعرية، بحيث يصبح اللاوعي عندئذ المحرّك الأساسي في فعل الإفصاح والنطق، أنا آخر؟ وبالتالي تصبح الهوية في تعيّنها المجازيّ متعدّدة الأبعاد، وحيزًا مليئا بالدلالات والرموز، بعيدا عن شبهة الاتحاد الذي يُعرّضها للخسران وللخيانة في متخيّل الشاعر من حيث هي هوية ملفّقة، ونقول ملّفقة بالطريقة التي تجعلها تنفلت من صرامة التعيين المفهوميّ في الفلسفة لتجد نفسها في رحابة اللامتعين الذي يمكن أن يمنحه الشعرّ / الأدبُ كإمكان مفتوح لتجليّ الرّوح الكونيّة، أليس هذا ما جعل أمبرتو إيكو يتحرّر من خوفه؟ لقد قال بالحرف الواحد: " لقد اكتشفتُ أنّ الرواية (كما الشعر) لا علاقة لها بالكلمات، إنّ الكتابة قضيّة كونيّة "[9].

2 في مديح المرآة، أو كيف تصف الذاتُ نفسها؟

ترتبط دلالة المرآة في الميثولوجيا الإغريقية بأسطورة نرسيس، ذلك أنّ ما وقع بين الناظر والمنظور لم يتشكلّ في أفق الرؤية إلاّ من حيث هو توحّد دراميّ يختزل الأنا في أناها أو يشطرها على ذاتها، بحيث تصبحُ موضوعها الوحيد والمنكفئ، أو بعبارة أكثر قلقا، تصبح الأنا مكبّلة بأناها بل وتعيش عزلتها الأنطلوجية، هذه العزلة التي حاول الرسام الايطالي كارافاجيو M.Caravage أن يجسّدها بعبقرية فنية نادرة في لوحته الشهيرة "نرسيس" عبر الشّكل الدائري المغلق للذراعين المنعكستين على صفحة النهر الأسطوري الخالد في إحالة على الذات السجينة. ولئن كان ثمّة ما يكثّف الكينونة فهناك ما يعظّمها أيضا، ووحده الاتحاد مع الآخر يحرّر الذات من عقال نرجسيتها. إنّ نمط وجود الآخر هو الظهور، حينما تنسحب الأنا في المرآة، "فالانعزال عن ذاتي في هذا المقام، وعلى شدة ألمه، سيمنح لي هذه المسافة الرائعة حيث تبدأ اللذة المنحرفة على غرار إمكانيتي على التخيّل والتفكير، فبهويّة منشطرة أو بِمِشْكالِ هويّات، هل يمكننا أن نكون بالنسبة لذواتنا ملحمةً دون أن نُشاهَدَ كمجانين أو كمزيّفين؟"[10]. ولكن ألا يبعث فينا ما تطرحه جوليا كريستيفا هنا، إحساسا بالارتقاء الكينوني؟ حتى وإن شوهدنا كمجانين أو كمزيّفين؟ ما الذي يجعلنا في الحقيقة وحيدين ومتكثّرين؟ غير هذي الفرصة التي يمنحنا إيّاها التفكير والتخيّل، تأمّلا واكتشافا، عندما نصبح عالما في ذواتنا. هكذا يصبح السؤال الذي طرحه باشلار " من ذا الذي يستطيع أن يحدّد الوزن الأنطلوجي لكلّ الـ " أنا" المتخيلة؟ " قابلا لنحت كوجيتو جديد: أنا أتخيلّ إذن أنا موجود.

---

[6] بول ريكور، **الذات عينها كآخر**، ترجمة: جورج زيناتي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، 2005، ص.146.

[7] ميشيل فوكو، **الكلمات والأشياء**، ترجمة: مطاع الصفدي وآخرون، دط، مركز الإنماء القومي، لبنان، 1989-1990، ص.255.

[8] هومي ك. بابا، **موقع الثقافة**، ترجمة: ثائر ديب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2004، ص.118.

[9] أمبرتو إيكو، **تأمّلات في اسم الوردة**، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدّة، لبنان، ص.34.

[10] Julia Kristeva, **Etrangers à nous-mêmes**, Edition Gallimard, paris, 1991, p.25.

يشير جاك لاكان في تحليله لمرحلة المرآة إلى وجود ثلاثة مستويات لفهم العلاقة بين الناظر والمنظور، يمكن من خلالها أن يتعرّف الموضوع على ذاته وعلى جسده، ويمكن أن يحدّد في صورة الجسد الشكل الذي يطرح التباين فيما وراء الظاهر والباطن، ففي مستوى أوّل يرى الطفل صورته في المرآة ولكنه لا يدرك هذا الشبيه إلاّ في مرحلة ثانية يتفاجأ فيها بحضوره داخل الصورة بما هو آخر مختلف، وهنا يتحدث لاكان عن الصورة المستلبة L'image aliénée ، أما في المستوى الثالث ومن خلال الآخر الأبويّ فيتّم إدخال الطفل للتعرف على صورته عبر التسمية والنظرة.[11] أي عبر الآخر الذي يكتبه لاكان بـ أ كبيرة A (Autre) والذي يتخذّ في منظومته السيكولوجية معنى المكان الغريب، المرجعية التي تشكّل وعينا بالآخر من حيث هو ذات مختلفة، قانون، منظومة رمزية أو موقع يتأسّس فيه الكلام، وهو الأمّ بكلّ دلالاتها الأسطوريّة وهو آخر يدلّ على المرأة بما هي جنس مختلف. ولعلّ هذا المكان العامر الذي يحيل إليه آخر لاكان، هو ذاته المكان الذي يسترفد منه آرثر رامبو لتأسيس رؤيته الشعرية المفتوحة الآفاق.

3 أنا آخر، أو قطعة الخشب التي تجد نفسها كمانا

ما إن نطرح الآخر كحرية تستعيد فيه الأنا وعيها بذاتها حتى تواجهنا فكرة أنّنا كائنات قابلة للاغتراب، "فالأنا آخر عند رامبو لم يكن فقط اعترافا بالشبح الذهاني الذي يلازم الشعر. فالكلمة تعلن عن المنفى، عن إمكانية أو ضرورة التغرب أو العيش بالخارج كرؤية مستقبلية لفن العيش في العصر الحديث"[12]

..... (قيد الانجاز)

4 الشعر حدثا كونيا ورؤية للعالم

بتاريخ 13 مايو 1871 وفي رسالته الشهيرة إلى جورج ايزمبار، شدّد رامبو على أنّ الأنا آخر، ..... (قيد الانجاز)

---

[11] Cédric Levaque, le corps et la clinique psychanalytique de l'alcoolisme, Pour une lecture pulsionnelle du stade du miroir, La revue Lacanienne, n° 7, 2010, pp.69.70.

[12] Julia Kristeva, **Etrangers à nous-mêmes**, op.cit, p.25.

خاتمة